اسم الدرس : تفسير سورة الفتح (4) | الآيات [10 : 17]

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـــر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، نستكمل بإذن الله ما بدأناه من تفسير سورة الفتح أو وقفات مع آيات من سورة الفتح.

أسأل الله -عز وجل- أن يجعل هذه السورة فتحًا لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا، وأن يرفعنا بهذا القرآن مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

ننبه دائمًا على أهمية مجالس القرآن؛ حيث يجب على الإنسان أن يستحضر هذا الثواب العظيم، وأن يستحضر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته) [1]، وأن هذا الكلام هو كلام الملك -سبحانه وتعالى-؛ ونحن نحاول أن نقترب سويًا من فهم هذا الكلام حتى نتدبره ونعمل بما فيه، أسأل الله -عز وجل- أن يجعلنا من العاملين بكتابه المجاهدين لنصرة دينه.

تحدثنا عن آية البيعة التي وضحت أن نصرة الدين ليست بالكلام أو بالأماني، وأن من يرد أن ينصر النبي -صلى الله عليه وسلم-، عليه أن يعزره ويوقره؛ كما أخبرنا الله -عز وجل- في قوله: {وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}[الفتح:9] -على قول أن الضمائر في هذه الآيات تعود إلى النبي -صلى الله عليه وسلم--، ثم جاءت بعدها آية البيعة؛ بمعنى: أن من يرد أن ينصر الدين لا بد أن يقدم، ويبذل، وعلمنا أن أعلى صور التضحية هي أن يقدم الإنسان نفسه؛ لذا كانت البيعة على الموت {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ}[الفتح:10]. وتحدثنا في هذه الآيات عن بعض المعاني.

ثم قال الله -عز وجل- بعدها: {سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ}[الفتح:11]. {قُلْ} ردًا عليهم: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا}[الفتح:11-12]

النقطة الأولى:

[1] [عن أنس بن مالك:] إنَّ للهِ أهلِينَ مِنَ الناسِ قالوا: من هُمْ يا رسولَ اللهِ؟ قال أهلُ القرآنِ هُمْ أهلُ اللهِ وخاصَّتُهُ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ١٤٣٢ • صحيح

جاءت هذه الآيات بعد آية البيعة، ولم يذكر المولى -عز وجل- ما الذي حدث بعد ذكر البيعة على الموت ؛ إنما تكلم عن لحظات رجوع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأخبره أنه سيحدث كذا وكذا عندما يعود إلى المدينة،وكأن القضية ليست النتيجة، إنما المهم هو الوصول إلى هذه المرحلة؛ فليس مهمًا معرفة من انتصر، أو ما الذي حدث -وإن جاءت بعد ذلك آيات توضح ماذا حدث-.

فالقضية دائمًا ليست هي النتيجة؛ كما قال الله -عز وجل- في سورة العاديات: {وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴿١﴾ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا}؛ حيث تتحدث الآيات عن أناس يستعدون للجهاد في سبيل الله حتى أغاروا في الصباح {فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ﴿٣﴾}، {فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ﴿٤﴾} أي: التراب في وسط المعركة، {فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ﴿٥﴾}، وبعد أن وصلوا إلى وسط المعركة، وتوسطوا الجموع، وتصاعد التراب بحيث لم يعودوا يرون شيئًا، ينتهي المشهد بقوله تعالى: {إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ﴿٦﴾}.

انتقلنا إلى مشهد آخر، دون أن نعرف ما الذي حدث لهؤلاء، وهل انتصروا أم قتلوا، فكل ذلك ليس مهمًا، إنما المهم أنهم استطاعوا أن يصلوا إلى هذه النقطة، فالمهم إذًا؛ أن تصل إلى مسألة البيعة وأن تحافظ عليها.

النقطة الثانية:

في قوله تعالى: {سَيَقُولُ}؛ الله -عز وجل- لا يترك نبيه أبدًا ولا يترك المؤمنين، فهو سبحانه يخبرهم أنهم سيقابلون صنفًا من الناس، -صنفًا غريبًا- وهم المنافقون الذين يعتمدون دائمًا على الكلام.

وهذا ذُكر منذ بداية الحديث عن المنافقين في سورة البقرة أنهم يعتمدون على الكلام، والمؤمنون قبل قدومهم إلى المدينة -عندما كانوا في مكة- كانوا معتادين على وجود صنفين من الناس: كافر ومسلم؛ الكافر يعذب المسلم، والمسلم يصبر على أذى الكافر.

ولكن عندما ذهبوا إلى المدينة كانت المفاجأة هي ظهور صنفٍ آخر مختلفٍ تمامًا، لذلك قال تعالى: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ}؛ فهو مستخفٍ بين الناس، {مَن يَقُولُ}؛ وأول وصف للمنافقين في القرآن تم ذكره في أول سورة البقرة؛ هو أنهم كثيرو الكلام، والله -عز وجل- يخبر المؤمنين أنهم سيجدون هذا الصنف مستمرًا في الكلام عند عودتهم إلى المدينة.

{سَيَقُول} فالمنافق دائمًا يدعي "الإيمان"، ويدعي أن لديه أعذارًا، ويتبرأ من المشاكل، ويسعى إلى المغانم، ويبتعد عن المغارم، وله تصور معين، كنا تكلمنا في درس سابق [متى يظهر أو متى يتكلم المنافقون]، لأنهم كثيرو الكلام، فالله -عز وجل- يعلم رسوله والمؤمنين -بصيغة المستقبل-: عندما ترجع المدينة سيقولوا لك -المنافقون-، وقد قالوا، وهذا من إعجاز القرآن.

وربما خطر ببالك أن المنافقين كان بإمكانهم عندما علموا بهذه الآيات، أن يجتمعوا ويتفقوا فيما بينهم على ألا يقولوا مثلما أخبرت الآيات؛ ليكذبوا القرآن، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- رجع إلى المدينة ومعه الصحابة، وهم يعلمون أن هذا سيحدث -بعدما أخبرهم به الله-.

وهذه من اللطائف في وسط المحنة؛ فصلح الحديبية كان ثقيلًا على النفوس،وكان يحتاج يقينًا عاليًا ليثبت الناس، ولم يثبت في هذه اللحظات إلا الصديق -رضي الله عنه-.

وبينما المؤمنون عائدون إلى المدينة في هم وغم وكرب، نزلت سورة الفتح ببشريات لأهل الإيمان، فتخيل هذا المشهد: الصحابة متعجبون لِما حدث في صلح الحديبية، ثم تنزل عليهم سورة الفتح، ثم يرجعوا المدينة فيجدوا المنافقين يقولون كما أخبر الله عنهم: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}، فعندما سمع الصحابة كلام المنافقين، قالوا: "صدق الله"، وازدادوا يقينًا.

فأحيانًا أفعال أهل الكفر والنفاق تجعل إيمان المؤمنين ويقينهم بالله يزداد، وهذا مثل قوله تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، فالصحابة كانوا يعلمون أن المشركين واليهود والمنافقين سيجتمعون معًا، فلمّا رأوا ذلك {قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}[الأحزاب: ٢٢].

كذلك عندما يعود المؤمنون فيجدون المنافقين يعتذرون بقولهم: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} يبتسم المؤمن ويزداد يقينًا.

{سَيَقُولُ لَكَ} هذه الآية من المتشابهات في سورة الفتح، فهنا في هذه الآية: {سَيَقُولُ لَكَ} أنت يا محمد، أما في الآية القادمة: {سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ} أي: سيقول الذين تخلفوا عن السير، لكل المؤمنين، أما هنا: سيقولون لك -أيها النبي- تحديدًا بصفته -صلى الله عليه وسلم- القائد الذي تخلفوا عن السير معه.

{سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ} وكان من المتوقع أن تكون [سيقول لك المتخلفون]؛ أي: الذين تخلفوا عن الغزوة، لكن الله سماهم "المَخلفين"، والمخَّلف في اللغة يسمونه صيغة اسم مفعول؛ بمعنى أنه ليس هو من تخلف من تلقاء نفسه، ولكن هناك قوة أخرى جعلته يتخلف.

وهناك وقفتان مع كلمة "مُخَلَّفُونَ":

*الوقفة الأولى مع هذه الكلمة أنها [وصف].

*والوقفة الثانية أنها [اسم مفعول].

فأما الوقفة الأولى [الوصف]: الله سماهم "المخلفون"، والشيء الذي يتخلف هو المتاع الذي يسقط من القافلة ولا تلتفت إليه، المخلفات التي تجمع وتُلقى،وكأن الله -سبحانه وتعالى- يقول لنا ألا نلتفت إليهم، فأهل الإيمان أحيانًا يتمنون أن يكون العدد كبيرًا، وقد كان بعض المؤمنين يحزنون عندما يخرجون لمعركة ويتخلف المنافقون فيحزنون لقلة العدد.

فعندما خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى عمرة ذي القعدة -صلح الحديبية- كان قد عقد عهودًا مع قبائل الأعراب الذين يقطنون حول المدينة، مع ست أو خمس قبائل منهم: أسلم، وأشجع، وجهينة، ومزينة، وغفار،وكانت تنص هذه المعاهدات على أن يخوضوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أي معارك يخوضها، وهنا كان النبي يريد أن يذهب إلى العمرة، فبعث إلى هذه القبائل لتخرج معه حتى يزداد العدد ويمثلوا قوَّة؛ فقريش تخشى الحرب؛ لذلك قام بعملين:

*ساق النبي الهدي حتى يثبت لهم أنه لا يريد إلا العمرة. *وزاد العدد حتى لا تتعرض قريش له بالحرب فتتم العمرة.

وقد أحصت بعض كتب السير أسماء مَن شارك مِن هذه القبائل الست،وكانوا أعدادًا بسيطة؛ حيث أن غالبيتهم تخلفوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقد أحزن هذا الموقف المسلمين حزنًا شديدًا؛ لأن العدد كان قليلًا، وهم كانوا خائفين من قلة العدد حتى لا تحاربهم قريش وتمنعهم من العمرة، فتحدث غزوة لم يكونوا على استعداد لها؛ فهم إنما كانوا قادمين طلبًا للعمرة فحسب.

فيقول الله لهم بأن هؤلاء مجرد مخلفات؛ فلا تلتفتوا إليهم، كما قال الله لهم في تبوك أيضًا لما تخلفوا عنهم : {لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}[التوبة :47] فلا تفترضوا أن وجودهم معكم يزيد من عددكم، ويفيدكم، بل سيضركم،وكلما ازدادت أعداد المنافقين في صفوف المؤمنين، أحدثوا أثرًا عكسيًا عليهم وأضعفوا قوتهم.

{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ } بمعنى: أن فيكم أناسًا سيتأثرون بالمنافقين، وبكلامهم.

فسماهم الله "مخلفين" لكيلا تلتفتوا إليهم، فلا قيمة لهم، فالإنسان الذي لا ينصر دين الله –عز وجل– لا يساوي شيئًا، هو يجلس ليحافظ على شيء معين؛ لذلك أصبحت حياته كلها بلا قيمة.

والوقفة الثانية [اسم المفعول]: بمعنى أن الله هو الذي قذف الجبن في قلوبهم؛ لأنهم لو أرادوا الخروج فعليًا لأعدوا له عدة، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم –والعياذ بالله–.

فأحيانًا عندما يتخلف الإنسان عن شيء عظيم في الدين يكون ذلك عقوبةً لإعراضه، ولسوء ظنه، وتردده وريبته التي يعيش فيها، فهو لا يريد أن ينصر الدين، خائف جبان! فيعاقب بأنه لا يوفق للخروج، بل قيل أن هناك من وفق للخروج ولكنه حرم البيعة وهو شخص واحد: الجد بن قيس، فكل المؤمنين بايعوا إلا هو لم ينل شرف بيعة الرضوان، تخيل أنه خرج بالفعل لكنه حرم هذا الأجر العظيم!، فأحيانًا يكون عقاب الإنسان بأن يمنع من المشاركة في شيء عظيم لنصرة الدين.

نسأل الله –عز وجل– ألا يحرمنا أبدًا من نصرة دينه.

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ}، الأعراب هم من حول المدينة من البادية، وهؤلاء كانوا خمس أو ست قبائل –كما ذكرنا–، اجتمعوا مع بعضهم البعض بعد خروج النبي لصلح الحديبية،وكانوا متعجبين من ذهاب النبي إلى مكة رغم ما حدث في غزوة الأحزاب، فقالوا: "يذهب إليهم –أي إلى قريش– في دارهم وقد كانوا يغزونه في عقر داره ويقتلون أصحابه، فقد كانوا عندنا منذ سنة في غزوة الأحزاب وكانوا سيقتلوننا، إنما أصحاب محمد أكلة رأس –يقصدون أنهم عدد صغير لو تجمعوا على رأس إبل بالكاد سيأكلونها، وكل همهم الطعام والشراب–، فكيف يذهبون إلى قريش بهذا العدد الصغير؟ فلن نخرج معهم".

فاتفقوا على عدم الخروج، ولكن ما الذي سيقولونه للنبي -صلى الله عليه وسلم-؟، هم لن يقولوا له بأنهم غير واثقين به وبقوة المؤمنين، وبكلام الله وأوامره؛ لأنهم لو قالوا ذلك كان طعنًا في إيمانهم، ولكنهم أرادوا حجة أخرى، فقالوا عندما يعود النبي -صلى الله عليه وسلم-، سنقول له: "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا".

ولابد أن نقف مع هذه الآية: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} عدة وقفات:

الوقفة الأولى: أنّ انشغال الإنسان بماله وأهله وولده عن نصرة الدين، هل يعُدُّ أمرًا جيدًا أم سيئًا؟ هذا سيء، فكيف يعتذرون للنبي بهذا العذر، ويقولون على أنفسهم شيئًا سيئًا؟! بدلًا من أن يعتذروا بحجة أنهم كانوا مشغولين بالعبادة مثلًا، أو أن يقولوا بأنهم لم يعلموا بأنه سيكون هناك قتالٌ، مثلما قالوا في غزوة أحد: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ}.

فكان من الممكن أن يعتذروا بعذر آخر ، ولكنهم اختاروا هذا العذر {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}، فلماذا اختاروه؟ وهل يقبل مثل هذا العذر من المؤمن؟

الوقفة الثانية: خبث المنافقين.

فيما يتعلق بالوقفة الأولى، وهل يقبل من المؤمن أن يقول شغلتنا أموالنا وأهلونا؟، فقد قال صاحب الظلال هنا كلمة رائعة: "فللناس دائمًا أهل وأموال"، بمعنى أن كل الناس لديهم أهل وأموال، فلو قال كل شخص: "ظروف عملي تمنعني من نصرة ديني"، سيكون الجواب: أن جميع الناس كذلك لديهم أشغال وأعمال، فمن ينصر الدين إذًا؟، أو لو قال أن لديه أهلًا، وهذا يمنعه من نصرة الدين، أو أنه منشغل في التجارة والأموال، فنقول له أن الناس جميعهم لديهم أهل وأموال! إذًا من سينصر الدين؟!

وهذه إشكالية خطيرة جدًا، وصلنا إليها بعدما تسربت بعض الأفكار العلمانية إلى تفكير المجتمع، وأصبح هناك انفصال بين الدين والدنيا؛ فالدين نُحِّيَ جانبًا؛ حتى أن الكليات الشرعية صارت بعيدة عن الكليات الأخرى التي سُمّيت بالكليات العلمية،وكأن الشرع ليس بعلم!

وأصبح الإنسان عندما يتخصص في مجال دنيوي؛ تنقطع علاقته بالدين، في حين كانت لعلماء المسلمين وظائف دنيوية إلى جانب كونهم علماءً كبارًا في الدين، ومنهم من يدل اسمه على وظيفته، مثل: النحاس،

والزجاج وغيرهم، فقد كان منهم من كانت له وظائف معينة، أو يدرس علومًا دنيويةً معينة، ولكنه كان عالمًا في الدين، أما هذا الفصل التام الذي نحن فيه الآن لم يحدث إلا مؤخرًا.

فأصبحنا نجد الطبيب وكأنه غير مطالب بتعلم الأمور الشرعية، ونقول لهؤلاء: إذا كنتم غير مطالبين بتعلم الشرع، فكيف ستنكرون المنكر؟، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من رأى منكم منكرًا فليغيره) [2] وهذا خطاب لعموم الناس، أن عليهم أن ينكروا المنكر.

فهناك عموميات في الدين، في نصرة الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وفي الدعوة إلى الله، ولو لم يعمل الطبيب للدين لأنه طبيب ماهر، ولو لم يعمل المهندس للدين لأنه مهندس ماهر، ولو لم يعمل التاجر للدين لأنه تاجر ماهر، فمن سيعمل للدين؟!

ومن هم أصحاب الدين؟ هل هم الطائفة الصغيرة التي تختارها الدولة وتعطيهم أموالًا؟ -علمًا بأن هؤلاء مطالبون بأن يقولوا ما تريده الدولة فقط-، وهل هؤلاء سيغطون كل الدولة؟، ولو افترضنا أن هؤلاء يقومون بوظائفهم أصلًا ويجهرون بالحق، فهل سيصلون إلى الأطباء في أماكنهم؟،وكيف سيعرف الأطباء دينهم؟وكيف سيعرف المهندسون دينهم؟

فلننتبه لهذه الفكرة التي أصبحت منتشرة في المجتمع بشكل كبير: أن الطبيب المسلم إنما هو مسلم ويصلي فحسب، وليس عليه أن يتعلم الدين، أو أن ينصره، ولو فكر الجميع بمثل هذا التفكير في ظل الواقع الانهزامي الذي نعيشه الآن، فمن سينصر الدين؟

والآن لا يخفى على أحد أن الجميع يهاجم الدين، وأن الذين يهاجمون الدين ويقومون بإنشاء المواقع الإباحية ونشر الشبهات ليسوا أهل دين، ولكن كل الأحزاب تسخر جهودها وتجتمع لهدم الدين، ولو فكرنا نحن بهذا التفكير فإننا سنساهم في هدم الدين.

فمن أين جاءت هذه التقسيمة في الدين؟ أليس مصدر التلقي عندنا القرآن والسنة؟ فأين تجد هذه التقسيمة فيهما؟ **وإذا فكرنا بهذه الطريقة، فمن ينصر الدين؟**

---

[2] [عن أبي سعيد الخدري:] أَوَّلُ مَن بَدَأَ بالخُطْبَةِ يَومَ العِيدِ قَبْلَ الصَّلاةِ مَرْوانُ. فَقامَ إلَيْهِ رَجُلٌ، فقالَ: الصَّلاةُ قَبْلَ الخُطْبَةِ، فقالَ: قدْ تُرِكَ ما هُنالِكَ، فقالَ أبو سَعِيدٍ: أمّا هذا فقَدْ قَضى ما عليه سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: مَن رَأى مِنكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسانِهِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذلكَ أضْعَفُ الإيمانِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٤٩ • [صحيح] •

وإذا كانت الكليات الشرعية المسؤولة عن تلقي هؤلاء تأخذ مجاميع قليلة، والقليل من يدخلها، والناس ينظرون إليها نظرة دونية، وعندما تسأل أحدهم لماذا لا تنصر الدين؟ يقول أنا مشغول، "شغلتنا أموالنا"، إما بتجارة يخشى كسادها، أو مساكن يرضاها..، إذًا من ينصر الدين؟!

ومن قال بأنه يستحيل الجمع بين عملك في دنياك وإصلاحها وبين العمل للدين ونصرته؟!

من قال بأن نلزم الناس بالنظرة الأحادية؟ إما أن تعمل للدنيا فقط أو أن تعمل للدين فقط، هذا تفكير خاطئ تسرب إلى الناس، فأصبحوا لا يبالون بالدين، لأنه ليس وظيفتهم، وينتظرون ((رجل الدين)) يكون هو فقط المسؤول عن الدين.

وهذه الكلمة ليست موجودة عندنا، فعندنا ((عالم)) وليس ((رجل دين))، والعالم هومن يُسأل ويكون فقيهًا في الشرع، فأي شخص ممكن أن يتعلم العلم الشرعي، بل وبعض الأحكام الشرعية يجب عليه أن يتعلمها: كالصلاة، والزكاة -إن كان من أهل الزكاة-، والبيوع -إن كان من أهل التجارة-.

فمسألة "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنا وَأَهْلُونَا" هم قالوها بلسانهم، ونحن **نقولها بأحوالنا**؛ ولسان حالنا وأفعالنا يقول هذه الكلمة، فنحن نفعل بعض أفعال المنافقين ونقول: "شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنا وَأَهْلُونَا"، ونتحجج بحجج واهية.

فإذا ما سُئل أحدهم لماذا لا تفعل كذا؟، لماذا رأيت المنكر في عملك وأعرضت ولم تنكره؟ ولماذا لا تدعو إلى الله؟ يجيبك بأن هذه ليست وظيفته، هذا التفكير علمنة المجتمع هذا قد تسرب إلينا، وهو ليس من الدين في شيء، فلا يُعدّ علمًا أصلًا، ولا يصح أن يفكر به المسلم، بل هو نقيصة في حقه.

في آخر سورة المنافقون تعد أول وكة من وكات النفاق حين قال تعالى في ختام السورة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ..}[المنافقون:9]، فكيف تتحدث السورة عن النفاق والمنافقين وينادي الله على الذين آمنوا؟ تمامًا كما في سورة التوبة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}[التوبة:34]، فهل في الإسلام أحبار ورهبان؟ لا.

لكن الله ينادي على أهل الإيمان؛ لماذا؟ حتى لا نتشبه بهم ولا نسير في طريقهم، فهم صدوا عن دين الله بهذه الأفعال، فلا ينبغي لنا أن نفعل مثلهم، وليس معنى كون الإنسان مؤمنًا أنه أخذ ختم الإيمان إلى أن يموت، لا! فقد يرتد -والعياذ بالله-

فيقول في ختام سورة المنافقين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ..}، فكأنه سبحانه يخبرنا في آخر السورة بأن الصورة البشعة للنفاق التي نراها في هذه السورة كانت بدايتها هي الانشغال عن ذكر الله ونصرة دينه بالمال والأهل والولد.

فالسورة عرضت صورة بشعة عن النفاق عندما قال الله لهم: {تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ}، {لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ} [المنافقون:5] ولم يرغبوا بأن يستغفر لهم رسول الله، ، ثم هم يتكلمون بصورة سيئة عن النبي –صلى الله عليه وسلم–، وعن المؤمنين، **والبداية كانت هي الانشغال عن ذكر الله ونصرة دينه، فهو يعد أول وكة من وكات النفاق، ثم يستمر بعدها في السقوط.**

{شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا}، فالانشغال إذًا ليس عمق النفاق، وإنما هو **الوكة الأولى** في هذا المستنقع.

والذي ينشغل بدنياه عن نصرة دينه في وقت الدين يحتاجه هو بعينه، ولا يلتفت إليه وينفصل عنه ليهتم بدنياه يكون قد بدأ بأول وكة في سلم النفاق، فالنفاق هو فكر المصلحة الشخصية، –وتكلمت عن النفاق بصورة أوسع في درس [متى يتكلم المنافقون]–، والمنافق ليس له أي عقيدة أو مبدأ أو أيديولوجيا، مصلحته الشخصية فقط، فهو يسير مع الجميع، ولكنه يقف مع من يكسب، لا يشجع فريقًا معيَّنا بل يشجع الفرق كلها، ثم ينحاز إلى من يكسب، هو مع كل الرايات، اليهود والنصارى والمنافقين، ويمكن أن يتحول في أية لحظة؛ لأن المبدأ الذي يحكه هو مصلحته الشخصية فحسب، فبمجرد أن تفضل مصلحتك الشخصية على دينك، تكون حينها قد بدأت في النزول إلى هذا المستنقع.

والوكة الثانية في النفاق: أن يكون الفرد منشغلًا عن دينه، فتخبره دينك يحتاجك، فلا يهتم، تقول له المسلمون يحدث لهم كذا ، فيجيب وما شأني، ونجده سابقًا كان يتألم عند سماعه لأخبار المسلمين السيئة من قتل وتشريد للمسلمين في سوريا وبورما، ويسأل عن إخوانه المسلمين، ويهتم بأخبارهم {يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ}، لكن من بعيد، وهو مشغول، ثم بعد فترة يبيع القضية ولا يعود يسأل أصلًا، ولا يشغل باله ما يحدث للمسلمين.

لذلك فالإمام ابن عاشور: اختار أن هؤلاء لم يكونوا منافقين، بل كانوا ضعاف الإيمان، ولما قالوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– "استغفر لنا" كانوا جادين في قولهم، وهذا خلاف جمهور المفسرين الذين قالوا بأنهم كانوا يكذبون.

فمن الممكن أن يكون الفرد في البداية مشغولًا، وحزينًا لانشغاله عن نصرة الدين، ثم ما يلبث أن يصبح مشغولًا من دون أن يتزعج لذلك، وهذه هي الوكة الثانية في سلم النفاق.

أما الوكة الثالثة في النفاق: ليست المشكلة أنه مشغولًا أو باع القضية بل كفر بالقضية أصلًا، حيث أصبح فاقدًا للأمل في أن ينتصر هذا الدين من الأساس، ويرى نفسه أنه كان يسير في قضية خاسرة، ويعتقد أن الدين وهذه القضية لا تستحق أن يهدر أمواله وحياته من أجلها، لأنها قضية خاسرة، وهذا تفكير خاطئ، وعلى الرغم من أنه ما زال يحافظ على شكل الإسلام الخارجي، لكن فكرة نصرة الدين، وأنه سيأتي وقت ينتصر فيه الإسلام، تعد من وجهة نظره ((كلامًا فارغًا)).

ونجده يردد عبارات منها: "لقد خُدِعنا"، وفي هذا قال تعالى: {مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}[الأحزاب: ١٢]، ولا يكتفي بهذا القول، بل يصف المؤمنين الذين ما زالوا يدافعون عن الدين ويسيرون في طريق نصرة الدين بأنهم "مخدوعون"، ويقول: هؤلاء الذين يرددون خيبر خيبر يا يهود، يعيشون في الوهم، فالناس تقدموا ووصلوا إلى القمر وأنتم ما تزالون تعتقدون بأن الإسلام من الممكن أن ينتصر، فهو قد كفر بالقضية وأصبح يسيء الظن بأن الله -عز وجل- ناصر دينه، لأنه يحسبها بالأسباب فيرى ذلك مستحيلًا، وأصبح كافرًا بالقضية وليس مجرد لامبالاة، وهذه هي **المرحلة الثالثة في النفاق: إساءة الظن في الله.**

والمنافقون هنا وصلوا إلى الوكة الثالثة من مستنقع النفاق، لكنهم قاموا باتباع خطة خبيثة:

الله يقول لهم بأنهم كانوا كاذبين، {وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ}، {بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}، بمعنى أنهم يقولون في داخلهم أن الدين لن ينتصر، وهذا هو ظن السوء، فهم في الوكة الثالثة.

وهم يريدون أن يحسنوا مظهرهم، فيقولون بأنهم ما زالوا في الوكة الأولى، وهذا من الخبث، كمن يفعل كبيرة وهو إذا ما قال للناس بأنه طائع لن يصدقه أحد؛ لذلك يدعي أنه من أهل اللمم، وهناك فارق رهيب بين الاثنين.

ودائمًا يشتد المنافق خبثًا و ضعفًا على حسب قوة أهل الإيمان، ففي سورة الفتح عندما عقد المؤمنون صلحًا مع قريش حققوا قوة، فقريش وهي أكبر قوة في الجزيرة العربية قد اعترفت بهم، فأصبحوا قوة،

والمنافق يزداد في مثل هذا الوقت خبثًا وضعفًا،وكلما زاد ضعفه كان خبثه أكثر، لأنهم يريدون أن يراؤوا، وكلما كان المنافقين مستضعفين ولم يُمكنوا يجهروا بكلامهم أكثر، كما فعلوا في غزوة أحد عندما قالوا بأنهم اعتقدوا بأنه لن يكون هناك حرب، فرجعوا بثلث الجيش.

لكن هؤلاء طلبوا من المؤمنين ألا يعتبروهم منافقين، فهم قد أذنبوا ذنبًا بسيطًا -بزعمهم-، والكل يخطئ.

فالفارق بين المنافق المغموس في النفاق الذي تخلف عن غزوة تبوك، ويرى أن هؤلاء الذاهبون إلى الروم سيهلكون أنفسهم، وبين الثلاثة الذين تخلفوا: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع،وكعب بن مالك، هو الفارق بين الهوكة الأولى والهوكة الثالثة، فالثلاثة أتوا إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبكوا بكاءً شديدًا، واعتذروا للرسول، وأنزل الله توبتهم في سورة التوبة.

فأحيانًا المنافق يريد أن يقول أنا مثل هؤلاء الثلاثة، لكن المنافقين ليسوا مثل هؤلاء الثلاثة، بل يختلفون عنهم تمامًا، لذلك عندما أتوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يعتذرون بتركهم، ولكن عندما جاء كعب بن مالك يعتذر، قال النبي: (أما هذا فصدق)، بمعنى أن الآخرين كاذبون، على الرغم من أنهم قالوا نفس العذر الذي قاله كعب بن مالك: "انشغلنا بمالنا وأهلنا وأولادنا ونحن نادمون"، إلا أن كعبًا **كان صادقًا فعلًا**.

وأنت قد تقع في مثل ذلك وتقدم مصلحة مالك وولدك على نصرة الدين، فتكون قد ارتكبت ذنبًا، فواجب عليك أن تقوم مسرعًا؛ لأنك بدأت تسقط في النفاق، وهو يسمى مرحلة ضعف الايمان، فلابد أن تنقذ نفسك وتصعد.

بينما هؤلاء استمروا حتى وصلوا لآخر مستنقع النفاق، لكنهم يريدون تحسين صورتهم، فيقولون: نحن لسنا سيئين لهذه الدرجة، إنه مجرد ذنب بسيط، شغلتنا أموالنا وأهلونا وأتينا نادمين نقول لك استغفر لنا، هذه هي الحركة الخبيثة التي يفعلونها.

{شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا} لذلك كذبهم الله، وقال: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}، ومع أن القول يكون باللسان، والقرآن الأصل فيه الإيجاز حيث كان من الممكن أن يقول الله: (يقولون ما ليس في قلوبهم)، لكن أتت الآية بلفظ "ألسنتهم"؛ ليبين لنا الله -عز وجل- أن هذا الكلام لم يتعدَ اللسان إلى القلب، فهو مجرد كلام باللسان فحسب.

{يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيسَ فِي قُلُوبِهِمْ} .. لا هم نادمون ولا يطلبون استغفارًا ولا شغلتهم أموالهم وأهلوهم، لذلك كان الرد الذي أتاهم "قل".

وكلمة "قل" تبيّن أن على الداعية ألا يفقد الأمل في أي أحد حتى من وصل إلى مستنقع النفاق؛ فزد عليه وندعوه إلى الله، ولا نقول له انتهى أمرك ولا يوجد فيك أمل وتركه، ولكن لابد أن ندعوه ونعظه، ونقول لهم قولًا بليغًا، فالله قال لنبيه عن المنافقين: {وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[النساء: ٦٣]؛ أي تكلم معهم علهم يتوبون.

{وَقُل} لكن عند نصيحتهم لا بد أن تفهمهم جيدًا، ولا تبرر لهم خطأهم، فعندما يقولوا لك: "شغلتنا أموالنا وأهلونا"، لا تقل له: "لا بأس ولكن في المرة القادمة انتبه وخذ حذرك"؛ لا تصدقه، لذلك عندما علّم الله نبيه كيف يعظهم وينصحهم، قال له -سبحانه وتعالى- أن يتحدث معهم عن شيء آخر؛ وهو المانع الرئيسي الذي جعلهم يقعدون، وليس الكذبة التي كذبوها على النبي -صلى الله عليه وسلم-، **فالقرآن دائمًا يعالج القضية الرئيسية.**

وهذا كثير في القرآن، مثلما قالوا في سورة النساء {رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ} فكان من الممكن أن يرد الله عليهم، ويقول لهم بأن القتال أمر مهم، وأن أي أمة تترك القتال تكون أمة مهانة تعيش في ذل وصغار، وأنه لا بد من الصراع بين الحق والباطل، لكنه -سبحانه وتعالى- قال لهم: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ}[النساء:77]، فكان هذا هو الرد؛ أي لا تسترسل في شرح القتال وفقه الأولويات، فليس هذا ما بداخله، لكن الذي في داخل هؤلاء: حرصهم على الدنيا.

إذًا؛ لا بد للداعية أن يكون على فقه يرى به الدافع الرئيسي الذي يجعل المدعو ينطق بما يقول، ويجب عليه ألّا ينشغل بالكلام الظاهر، وإنما ينشغل بالدافع الخفي وراء ما يقوله المدعو.

فمثلًا هناك مذيعٌ تعلم مدى كرهه للإسلام والشرع، وصدر عنه كلام ضد الدين؛ وما في صدره أكبر مما بدا منه، ثم يستضيف شيخًا مثلًا، ويطلب منه أن يفصِّل له الحكمة من حكم شرعي معين حتى تدرأ الشبه التي حول ذلك الحكم؛ فمثل ذلك المذيع يجب أن تبدأ معه بشرح أن هناك إلهًا لهذا الكون أصلًا، وأنه شرع تشريعات يجب طاعته فيها والالتزام بها، فلا تُجبه عن سؤاله وتضيع وقتك، ولا تنخرط معه في هذه الجزئيات؛ لأنها ليست المشكلة الرئيسية عند هذا الشخص؛ إنما سؤاله نابع من رفضه لأساس

الشرع، ثم يأتيك فيقول بأنه يريد تطبيق الشريعة، لكنه يسأل عمَّا ستكون عليه السياحة بعد تطبيق الشريعة؛ هذا في الأساس رافض للشريعة، ويحارب الشرع منذ سنوات كثيرة، فيجب على الداعية ألا ينخرط في الأسئلة الجزئية معه، وإنما يتوجه للحديث في أساس الكون والتشريع، لأن دافعه الأساسي معروف وهو كرهه للإسلام.

فالمنافقون في مرحلة من المراحل من شدة ضعفهم بنوا مسجدًا –مسجد الضرار–، فلم يبنوا مكانًا فيه خمر ونساء، فانظر كيف يحاربون الدين !

وليس بنائه للمسجد يعني أن أصدقه، فإن المنافق تزداد مراوغته للمسلمين كلما كانوا أقوياء.

فالمانع الرئيسي لدى المنافق شيئين:

أوَّلا: هو يخاف على نفسه .

ثانيا: المنافق لا يثق بقدرة الله.

فالمنافق يخاف على نفسه الأذى، فالنفع والضر هو المحرك الرئيسي لأي إنسان.

لذلك كلما ازداد الإنسان يقينًا في أن الله –عز وجل– هو وحده الذي ينفع ويضر،وكلما اشتدت هذه العقيدة في قلب المؤمن، انطلق بسرعة لنصرة الدين، والعكس صحيح؛ كلما قل يقين الإنسان في أن الله– عز وجل– هو من ينفع ويضر، قل انطلاقه لنصرة الدين.

والمنافقون لا يوقنون أصلًا بمسألة النفع والضر، فالمنافق يخاف على نفسه جدًا، وفي نفس الوقت لا يثق بقدرة الله؛ لذلك كان الكلام معهم في هذين الشيئين –فيما ينقصهم–:

أوَّلا: أن النفع والضر بيد الله.

ثانيا: أن الله يملك السملوات والأرض.

لذلك قال الله تعالى : {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا}؛ تخيل أن منافقًا أتى النبي –صلى الله عليه وسلم–، وقال له: "شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا"، فكان المتوقع أن يرد النبي على المنافق ويقول: "قم يغفر الله لك"؛ ومن الممكن أن يقول المنافق أيضًا: "ألم يقل الله في سورة النساء {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا

أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}[النساء:64]، فأنا ظلمت نفسي، وجئت، وأستغفر الله على ما بدر مني، وأريد منك أيها النبي أن تستغفر لي، ها أنا أطبق كلام الله ولا أفعل شيئًا خطأً فاستغفر لنا"، وفي الحقيقة هذا المنافق خبيث، ويلعب بالدين.

فتخيل هو جاء للنبي –صلى الله عليه وسلم– فيقول له النبي: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا}، فُيفاجأ المنافق ، ويعلم أن هذا النبي مرسلٌ من عند الله المطَّلِع على القلوب، الذي يعلم خبايا الصدور {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[الملك:14].

النبي هنا واجه المنافق بالمانع الرئيسي له من الخروج، فالقضية ليست أموال وأهل وانشغال، أبدًا، إنما القضية أنه فاقد الثقة في نصرة الدين، فالمنافق لم يتخل عن القضية فحسب، بل كفر بها أصلًا؛ فيقال له: {فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا}.

وبدأ الله بـ (الضر)؛ ليبين أن المنافِق جلس ليُحافِظ على نفسه، في حين أنه لا أحد يملك له من الله شيئًا إن أراد به ضرًّا، فالضر قد يصيب الإنسان وهو في بيته؛ فهذا المنافق جلس وادَّعى أنه جلس ليحافظ على أهله وولده، بينما من الممكن أن يصيبه الضر وهو بجوارهم.

{قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[الفتح:11].

{بَلْ}: يسمَّى حرف إضراب؛ أي دعك –أيها المنافق–مما تقول، فإن الله بما تعملون خبير. ودائمًا يأتي اسم [الخبير] في القرآن مع بواطن الأمور، فمثلًا –ولله المثل الأعلى– الخبرة عند الإنسان تتكون مع كثرة التجارب، فحينها يسمى"خبيرًا"؛ أي معه شهادة خبرة، وهي تعني تجربته الشيء أكثر من مرة، حتى علم الشيء جيدًا وعلم بواطن أموره؛ فالمنافقون يقولون "استغفر لنا"، ولكنهم يخفون في صدورهم شيئًا آخر، يعلمه الله، {بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}.

فما هو هذا الشئ الذي يخفونه؟

{بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}[الفتح:12]؛ فالمنافق وصل لمرحلة أنه اعتقد أن الدين سينتهي وأن النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن معه جميعًا سيقتلون؛ وقد كان هذا في

بدايته مجرد ظن عند المنافقين، لقول الله تعالى: {بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَّنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}، ثم بعد ذلك قال : {وَزُيِّنَ ذَلِكَ}، فهم بدأوا بالظن، ثم زُيّن ذلك في قلوبهم؛

وقد حدث هذا على أربع مراحل:

*المرحلة الأولى: أنهم ظنوا ظنًّا واحدًا فقط، عندما جمع النبي المؤمنين، وعزموا على الخروج، فقال المنافقون أنه من المستحيل أن يعود المؤمنون؛ لأنهم –الكفار– كانوا في دارهم العام الماضي، وكانوا سينتصرون عليهم، فبحسبة بسيطة هم لن يرجعوا.

والقرآن يفصّل نفسية المنافق كي نحَذر عند الوقوع في أول مرحلة من مراحل النفاق فنستدرك ونرجع بسرعة.

*المرحلة الثانية: {وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ}؛ حيث أُعجِبَ المنافقون بهذا الظن، وسُعدوا به كثيرًا؛ بمعنى أن المنافقين تخيلوا أنه لن يكون هناك دين ولا شريعة؛ ففرحوا بمجرد التخيل.

لذلك أنت تدعو الله أن يحبب إليك الإيمان ويزينه في قلبك؛ وهذا هو الفارق بين المؤمن والمنافق، وفي السورة كنا قد قارنا بين {أَنزَلَ السَّكِينَةَ} وبين {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، فهنا أيضًا فرق بين تزيين الشيطان للباطل في قلب المنافق، وبين أن يزين الله –جل وعلا– الإيمان في قلب المؤمن، فيحب المؤمن الطاعة، ولا يعود يجاهد نفسه؛ لأن الطاعة أصبحت مزينة في قلبه، وأصبح مستمتعًا بطاعة الله؛ فعليك دائما بدعاء: (اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان) [3]، لأن تزيين الطاعة مرتبة أعلى من حب الطاعة، فعند تزيين الطاعة، تجري إلى الطاعة وأنت مسرور بها.

---

[3] [عن رفاعة بن رافع:] لما كان يومُ أُحُدٍ، وانكفأ المشركون، قال رسولُ اللهِ ﷺ استَوُوا حتى أُثنِيَ على ربي عزّ وجلَّ اللهم لك الحمدُ كلُّه، اللهم لا قابضَ لما بسطتَ، ولا مُقَرِّبَ لما باعدتَ، ولا مُباعِدَ لما قرّبتَ، ولا مُعطِيَ لما منعْتَ، ولا مانعَ لما أعطيتَ اللهم ابسُطْ علينا من بركاتِك ورحمتِك وفضلِك ورزقِك، اللهم إني أسألُك النَّعيمَ المقيمَ الذي لا يحُولُ ولا يزولُ اللهم إني أسألُك النَّعيمَ يومَ العَيْلَةِ، والأمنَ يومَ الحربِ، اللهم عائذًا بك من سوءِ ما أُعطِينا، وشرِّ ما منَعْت منا **اللهم حبِّبْ إلينا الإيمانَ وزَيِّنْه في قلوبِنا، وكَرِّه إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ واجعلْنا من الراشدين** اللهم توفَّنا مسلمِين، وأحْيِنا مسلمِين وألحِقْنا بالصالحين، غيرَ خزايا، ولا مفتونين اللهم قاتِلِ الكفرةَ الذين يصدُّون عن سبيلِك، ويُكذِّبون رُسُلَك، واجعلْ عليهم رِجزَك وعذابَك قاتِلِ الكفرةَ الذين أُوتوا الكتابَ، إلهَ الحقِّ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الأدب المفرد ٥٣٨ • صحيح

لكن المنافق يعجبه النقيض؛ فبعد أن ظن الظن الأول أعجب بظنه، وزَّين له الشيطان تخيلات عن عدم عودة النبي وأصحابه، وأن الإسلام سيزول بذلك، وسيعودون للحياة مرة أخرى من دون مشاكل وحروب، ولا جهاد وولاء وبراء، وسيتبعون شهواتهم دون أية قيود. {وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ}

*المرحلة الثالثة: {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ}

وقد وقف بعض المفسرون عند الفرق بين معنى الظن في قوله تعالى: {ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا}، وبين معناه في قوله تعالى: {وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ}

فقال بعضهم أن المعنى واحد-هو نفس الظن- بناءً على تفسير {ظَنَّ السَّوْءِ}: أنه هو ظن استحالة رجوع النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ وتكرار نفس المعنى يسمى "التكرير للتأكيد".

لكن لدينا قاعدة في القرآن تقول بأن: "التأسيس أولى من التأكيد"؛ بمعنى: إذا كانت الآية تؤسس لمعنًى جديد، نختاره بدلًا من أن تكون الآية تكرارًا للتأكيد، فإذا كان لدينا اختيارين في الآية لوجود خلاف بين المفسرين، قول يضيف معنًى جديدًا للآية، وقول أن هذا معنى مكرر للتأكيد، فالأولى أن أختار المعنى الجديد.

وقال البعض أن "ظن السوء" لم يقتصر على ظن عدم رجوع النبي -صلى الله عليه وسلم- والصحابة فحسب، بل ظنوا أن الدين سيندثر تمامًا ولن تقوم له قومة، ولن يبعث الله رسولًا أبدًا.

هذا هو "ظن السوء"؛ فهو بدأ بظن أن النبي والمؤمنين سيُغلبون، ولن يعودوا، ثم تلوَّج إلى أن أُعجب بظنه، واسترسل معه، وتخيل أنه لن يكون هناك دين أصلًا، مع أن هناك مؤمنون في أماكن أخرى، لكن المنافق لم يظن أن المؤمنين المستضعفين في الأماكن الأخرى قد يعودون لنصرة دين الله، بل أوصله ظنه إلى أن الإيمان سينتهي تمامًا.

*المرحلة الرابعة: {وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا}، فهو وصل إلى مرحلةٍ أصبح فيها مثل الأرض البور التي لا تنتج زرعًا أبدًا ولا خير فيها، فلم يعد يقوم بأية طاعة.

ونجد هنا ترابطًا بين "ظن السوء" و "قومًا بورًا"؛ فكلما أسأت الظن بالله، نقصت طاعتك، كما يحدث لبعض الناس الذين يُحبَطون من الواقع الذي يعيشونه، ومما يحل بالمسلمين في سوريا وبورما وفي كل

مكان، فيقولون في أنفسهم: "ما الفائدة من تعلم وحفظ القرآن؟" أو "ما الفائدة من العمل لدين الله؟"؛ وهذا من إساءة الظن بالله، ولن يكون الإنسان منتجًا إذا أساء الظن بالله؛ فكلما زاد سوء الظن بالله، يحبط الإنسان ويصبح "قومًا بورًا" على عكس الإنسان الذي يحسن الظن بالله، وعنده أمل، ويوقن بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، وأنه لا يضيع شيء عند الله ولو بعد مئات السنين، فإنه ينطلق وينتج.

فالمقصود من القوم البور:

* أي الذين لا خير فيهم.

*وبعض المفسرين قال: البور هم قوم هلكى في جهنم؛ أي: يدخل جهنم ويهلك فيها مثل الأرض المحروقة التي تصبح بورًا ولا تنتج.

*وقيل قوم بور؛ أي لا يقومون بأي طاعة. وهذا ظني أنه الأولى بالسياق، فكلما ازداد ظن السوء بالله، ابتعد الإنسان عن الطاعات.

فهناك ترابط بين البشرى والأمل والطاعة، فكلما كنت مستبشرًا وعندك أمل وحسن ظن بالله، تجد نفسك منطلقًا في الطاعة، أما المحبط فتجده جالسًا، لا يفعل شيئًا، لأنه فاقد للأمل، وهذا سوء ظن بالله؛ أنه سيضيع عملك، فأنت عبد للملك -سبحانه وتعالى-، قم وافعل الطاعة مهما كانت الأوضاع، يجب عليك أن تتحرك، وألا تسيء الظن بالله؛ حتى لا تكون بورًا -والعياذ بالله -.

ترى أحدهم يخاف أن يتحرك في الدعوة بسبب سوء ظنه بالله، فتجده لا يفعل أي شيء وذلك لسيطرة بعض المشاعر عليه؛ فهو خائفٌ، ومحبط، ومرعوب، ومفزوع، فهو كالقوم البور.

ثم قال الله لهم: {وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}؛ أي: ومن لم يؤمن بأن الله قادر، وأنه سوف ينصر رسوله، {فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا}

والإيمان المقصود هنا هو إيمانٌ مخصوص، وليس الإيمان العام؛ أي: ومن لم يؤمن في اللحظات الصعبة الضيقة بأن الله قادر، ومن لم يتبع النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه اللحظات سوف يهلك، فأحيانًا تتعرض لمواقف هي اختبار، وتكون مطالبًا فيها بأن تؤمن بقدرة الله، وتصدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، مثل الإسراء والمعراج، حيث أن هناك أناسًا -من ضعف إيمانهم- ارتدُّوا بعد الإسراء والمعراج !

{وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا}[الفتح:13]

قال الزمخشري لفتة جميلة: "كان من المتوقع أن يأتي السياق: [ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا لهم سعيرًا] بالضمير [لهم]، لكنَّ الله قال: {فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ}"، فهنا حوَّل الضمير إلى اسم ظاهر، وهذا يسمى "الإظهار في موضع الإضمار"؛ بمعنى أن الأصل هو الإتيان بضميرٍ [لهم]، لكنه جاء في الآية باسم ظاهر.

لماذا؟ يقول الزمخشري لفتة جميلة هنا: أن الله أتى بالاسم الظاهر-الكافرين- مكان الضمير؛ حتى يعلمنا الله أن الذي يفرِّق بين الإيمان بالله والإيمان برسوله كافر، فالمؤمن يجب أن يؤمن بالله وبالرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومن لم يؤمن بالله ورسوله فهو كافر.

{فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ}، فالمقصد من الآية أن نفهم أنك حتى تصبح مؤمنًا لا بد أن تؤمن بالرسول -صلى الله عليه وسلم- ، من لا يؤمن بالرسول -صلى الله عليه وسلم- فهو كافر، الإيمان لا يكتمل إلا بالإيمان بالرسول -صلى الله عليه وسلم- أيضًا؛ فشهادة الإسلام هي: أن تشهد أنه لا إله إلا الله، وأن تشهد أن محمدًا رسول الله.

إذًا المشكلة الأولى كانت في خوف المنافق على نفسه، فقيل له:

{قُل فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا}[الفتح:11-12].

والمشكلة الثانية: أنه كان لا يثق بقدرة الله، فيقول الله تعالى له: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}[الفتح:14].

تخيل أن الله يعطيهم أملًا بعد كل هذا النفاق! منافقون في الدرك الأسفل من النفاق، ظنوا أن الدين سينتهي، بل ويحبون أن ينتهي، وزُيّن ذلك في قلوبهم، ثم يقول الله لهم أنه ما زالت أمامهم فرصة للمغفرة؛ بل وختم -سبحانه وتعالى- آيته بالمغفرة: {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.

فكل هذا أتى بعد كلمة واحدة وهي "قل"، عندما قالوا {شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا}، وقد كان من الممكن أن يُعرض النبي عنهم، ولكن الخطاب القرآني الإصلاحي جاء بالوعظ الصحيح، فمن الممكن أن يتكلم الداعية كلامًا كثيرًا ، وهم لا يستفيلون منه، فلا بد أن تتكلم معهم كلامًا يدخل القلب، {وقل لهم في أنفسهم قوْلًا بليغًا}؛ أي يبلغ إلى قلوبهم.

قالوا كلمة واحدة، فرّد عليهم سبحانه بثلاث آيات -كما سيأتي-، فكلما قال المنافقون كلامًا، كان لا بد من أن يُرد عليهم؛ حتى تتضح الأمور، وحتى يهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}

أي: إن تبتم إلى الله -عز وجل- فسوف يغفر لكم، وإن توليتم فسوف يعذبكم عذابًا أليمًا، بمعنى أن هناك أملًا {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}.

إذًا النبي ذهب للعمرة وكان يريد خروج القبائل الست معه، فتخلف أغلبهم عن الخروج -لسوء الظن بالله-، وتمنوا أن ينتهي الدين ويعود الأمر إلى الجاهلية، لكن الله حفظ النبي والمؤمنين، ورجعوا، فحاول المنافقون أن يبحثوا عن أي عذر، واعتذروا بعذر خبيث لينتقلوا من مرحلة النفاق التام إلى أنهم أذنبوا ذنبًا بسيطًا.

الله -عز وجل- برحمته بالمؤمنين عوّضهم عما حدث لهم في صلح الحديبية، فهم كانوا ذاهبين ويتمنون العمرة، فعوضهم الله -عز وجل- بمغانم خيبر.

النبي -صلى الله عليه وسلم- ذهب إلى الحديبية على أمل أن يطوفوا بالبيت فمُنعوا، فرضي النبي بقدر الله، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-لما بركت الناقة: (والله لو سألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله لأجبتهم إليها) [4]،

[4] [عن المسور بن مخرمة:] خرَجَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ عامَ الحُدَيبيَةِ في بِضعِ عَشرَةَ مِائةٍ مِن أَصحابِهِ فلمَّا أتى ذا الحُلَيفَةِ قلَّدَ الهَديَ وأَشعَرَهُ وأحرَمَ مِنها بِعُمرَةٍ وبَعَثَ عَينًا لَهُ مِن خُزاعَةَ _ هو يسرُ بنُ سُفيانَ _ وسار النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى كانَ بِغديرِ الأُشطاطِ أتاهُ عَينُهُ قالَ إنَّ قُرَيشًا جمَعوا لَكَ جُموعًا وَقد جمَعوا لكَ الأَحابيشَ _ أخلاطَ القَبائلَ الَّتي حَولَ مَكَّةَ _ وهُمْ مُقاتِلوكَ وصادُّوكَ عَنِ البَيتِ ومانِعوكَ فَقالَ أَشيروا أيُّها النَّاسُ عليَ أترَونَ أن أَميلَ إلى عِيالِهِم وذرارِيِّ هؤلاءِ الَّذينَ يُريدونَ أن يَصدُّونا عَنِ البَيتِ فَإن يَأتونا كانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ قَد قَطعَ عَينًا مِنَ المشرِكينَ وإلَّا تَركناهُم مَحروبينَ _ مَسلوبينَ مَحزونينَ _ قال أبو بَكرٍ يا رَسولَ اللهِ خَرجتَ عامِدًا لهذَا البَيتِ لا تُريدُ قَتلَ أَحَدٍ ولا حَربَ أحَدٍ فتوجَّهَ لهُ فَمن صدَّنا عَنهُ قاتَلناهُ قالَ امضوا علَى اسمِ اللهِ قالَ : وسارَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ حتَّى إذا كانَ بالثَّنيَّةِ الَّتي يَهْبطُ

ووافق النبي على الصلح وعاد المسلمون وكانوا في حزن وكآبة، فنزلت سورة الفتح بالبشريات، فازدادوا أملًا، وانطلق النبي من مكة إلى المدينة وجلس فيها أيامًا، حيث عاد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة في ذي الحجة،وكانت (خيبر) في محرم- في العام الذي يليه مباشرة-، واشترط النبي أن يخرج معه إلى خيبر من حضر الحديبية فقط، أو من كان له عذر مقبول، وليس الذين تخلفوا.

وجاءتهم البشرى وهم عائدون إلى المدينة أنهم سيحصدون غنائم كثيرة من خيبر.

فقال تعالى: {سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا..} [الفتح:15]

انظر إلى كلمة [لتأخذوها]، التي تُشعر بالسهولة، ولم يقل: [إلى قوم لتحاربوهم]، كأنهم ذاهبون ليأخذوا المغانم ثم يرجعوا.

لماذا سُهلت خيبر؟ وخيبر كانت حصون عتيدة وعظيمة عند اليهود، فيبشرهم الله بأنها ستنتهي بسهولة، لذلك قال بعض أهل السير: أن من حكمة الله -عز وجل- أنه لم تحدث حرب مع قريش في ذلك

عليهم منها بَرَكَت بِهِ راحلتُهُ ، فقالَ النَّاسُ : حَلْ ، حَلْ خَلَأَتِ القصواءُ مرَّتينِ ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : ما خَلأَتْ ، وما ذلِكَ لَها بِخُلُقٍ ، ولَكِن حَبسَها حابِسُ الفيلِ . ثمَّ قالَ : والَّذي نفسي بيدِهِ ، **لا يَسألوني اليومَ خُطَّةً يُعظِّمونَ بِها حَرَماتِ اللَّهِ إلَّا أعطيتُهُم إيَّاها**، ثمَّ زجرَها فوثَبَتْ ، فعدلَ عَنهُم حتَّى نَزلَ بأقصى الحُدَيْبيةِ علَى ثَمدٍ قليلِ الماءِ ، فجاءَهُ بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخزاعيُّ ، ثمَّ أتاهُ - يَعني عُروةَ بنَ مَسعودٍ - فجعلَ يُكَلِّمُ النَّبيَّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ، فكُلَّما كلَّمَهُ أخذَ بِلحيتِهِ ، والمغيرةُ بنُ شُعبةَ قائمٌ علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ السَّيفُ وعلَيهِ المِغفرُ ، فضَربَ يدَهُ بِنَعلِ السَّيفِ ، وقالَ : أخِّر يدَكَ عَن لِحيتِهِ ، فرفعَ عروةُ رأسَهُ ، فقالَ : مَن هذا ؟ قالوا : المغيرةُ بنُ شعبةَ ، فقالَ : أي غُدَرُ أوَ لستُ أسعى في غَدرتِكَ ، وَكانَ المغيرةُ صحِبَ قومًا في الجاهليَّةِ فقتلَهُم وأخذَ أموالَهُم ، ثمَّ جاءَ فأسلَمَ ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : أمَّا الإسلامُ فقَد قَبِلنا ، وأمَّا المالُ فإنَّهُ مَالُ غَدرٍ لا حاجةَ لَنا فيه - فذَكَرَ الحديثَ - (لَمَّا كاتَبَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّمَ سُهيلَ بنَ عَمرٍو يومَ الحُدَيبيَةِ ، علَى قضيَّةِ المدَّةِ . . . وأبَى سُهَيلٍ أن يقاضِيَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّمَ إلَّا علَى ذلِكَ ، فكَرِهَ المؤمنونَ ذَلكَ وامتعَضوا ، فتَكَلَّموا فيهِ) فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : اكتُب هذا ما قاضَى عليَهِ مُحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ وقصَّ الخبرَ - فقالَ سُهَيْلٌ : وعلَى أنَّهُ لا يأتيكَ مِنَّا رجُلٌ وإن كانَ على دينِكَ إلَّا رددتَهُ إلَينا ، فلمَّا فرغَ مِن قضيَّةِ الكتابِ قالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لأصحابِهِ : قوموا فانحَروا ، ثمَّ احلِقوا فَردَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ أبا جَندَلٍ بنِ سُهَيلٍ ، يَومَئذٍ إلى أبيهِ سُهَيلِ بنِ عَمرٍو ، ولَم يأتِ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّمَ أحَدٌ مِن الرِّجالِ ، إلَّا ردَّهُ في تِلكَ المدَّةِ ، وإن كانَ مُسلِمًا) ثُمَّ جاءَ نِسوَةٌ مُؤمِناتٌ مُهاجِراتٌ (فَكانَت أمُّ كُلثومٍ بِنتُ عُقبةَ ابنِ أبي مُعَيطٍ ، مِمَّن خَرجَ إلى رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّمَ وهيَ عاتِقٌ ، فَجاءَ أهلُها ، يسألونَ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عَلَيهِ وسلَّمَ : أن يرجِعَها إليهِم ، حتَّى أنزَلَ اللَّهُ تعالَى في المؤمِناتِ ما أنزَلَ يَا أيُّهَا النَّبيُّ إذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتِ . . .) الآيةَ . فنَهاهُمُ اللَّهُ أن يردُّوهنَّ وأمَرَهُم أن يردُّوا الصَّداقَ ، ثمَّ رجعَ إلى المدينةِ فجاءَه أبو بصيرٍ رجلٌ من قُرَيْشٍ يَعني ، فأرسَلوا في طَلبِهِ فدفعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ ، فخَرجا بِهِ حتَّى إذ بلَغا ذا الحُلَيفةِ نزَلوا يأكُلونَ مِن تمرٍ لَهُم ، فقالَ أبو بَصيرٍ لأحدِ الرَّجُلَيْنِ : واللَّهِ إنِّي لأرَى سَيفَكَ هذا يا فلانُ جيِّدًا ، فاستَلَّهُ الآخرُ فقالَ : أجل قد جرَّبتُ بِهِ . فقالَ أبو بصيرٍ : أرني أنظر إليهِ فأمكنَهُ منهُ ، فضربَهُ حتَّى برَدَ ، وفرَّ الآخرُ حتَّى أتى المدينةَ فدخلَ المسجدَ يَعدو فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : لَقَد رأى هذا ذُعرًا . فقالَ : قد قُتِلَ واللَّهِ صاحبي ، وإنِّي لَمقتولٌ ، فجاءَ أبو بصيرٍ فقالَ : قَد أوفى اللَّهُ ذمَّتَكَ فقَد رددتَني إليهِم ، ثمَّ نجَّاني اللَّهُ منهُم ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : ويلَ أمِّهِ مسعرَ حربٍ لو كانَ لَهُ أحدٌ ، فلمَّا سمعَ ذلِكَ عرفَ أنَّهُ سيردُّهُ إليهِم ، فخرجَ حتَّى أتى سيفَ البحرِ وينفلتُ أبو جندلٍ فلحقَ بأبي بصيرٍ حتَّى اجتمعَت منهم عصابةٌ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٢٧٦٥ • صحيح • أخرجه البخاري (٤١٧٨) مختصراً، وأبو داود (٢٧٦٥) واللفظ له •

الوقت، مع أن المسلمين كانوا قد بايعوا على الموت وكادوا أن يحاربوا، بعد أن أُشيع مقتل سيدنا عثمان، وعندما علموا أنها شائعة تراجعوا عن الحرب، فقال بعضهم أن من حكمة الله -عز وجل- أن جعل المسلمين يدخرون قوتهم لخيبر، ولا يقاتلوا في مكة، ثم يعودوا إلى مكة بعد خيبر وهم منتصرون وفاتحون، وبذلك كسب المسلمون خيبر ومكة.

فأحيانًا تتعجل وتريد القتال، والله يدخر لك ما هو أفضل، وأنت لا تدري، فيجب أن تتعلم عدم العجلة.

فالصحابة عندما نزلوا على ما أراد الله ورسوله، ولم يقاتلوا في مكة، وادّخروا قوتهم هذه لخيبر انتصروا، وأخذوا المغانم واستفادوا منها،وكانت خيبر فتحًا على المسلمين، حيث كان الصحابة يقولون: "ما شبعنا إلا بعد أن فُتحت خيبر"، فنحن كنا لا نشبع من أول البعثة في مكة وبعد أن أتينا إلى المدينة إلا في سنة سبع هجرية-أي بعد فتح خيبر-، تخيل! ففتح خيبر كانت مغانم عظيمة للمسلمين.

قال تعالى: {سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ}

"إذا": حرف يأتي للتأكيد، ليس:[إن انطلقتم]، بل: {إذا انطلقتم}

و{إِلَىٰ مَغَانِمَ}، ولم يقل [إلى حرب] مثل الآية التالية: {سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ}، ف{إِلَىٰ مَغَانِمَ} كأنهم ذاهبون لأخذ الغنيمة فقط، لذا قال {لِتَأۡخُذُوهَا} أي لسهولتها، فهذه الآية بشرى بمغانم كثيرة سهلة يحصدها أهل الإيمان، وهذه الآية تؤكد أن الذي خرج للحديبية مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أخذ الدنيا والآخرة.

فبيعة الرضوان، رضي الله عن من حضرها، ونال مغانم خيبر، والذي قعد وظن ظن السوء في الله خسر الدنيا والآخرة!

أحيانًا أنت تعتقد أن هذا الموقف هو نهاية الإسلام، ولكن الذي يشارك في هذه "المغامرة" -حسب رأي الناس- هو الذي حصد الدنيا والآخرة، ومن أعرض وأساء الظن بالله خسر الدنيا والآخرة -والعياذ بالله-، فلابد أن يكون لدى الإنسان يقين في الإقبال لنصرة دين الله.

{سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ} ودائمًا هم يقولون، وليس لديهم عمل سوى الكلام، {إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ} فالمنافقون علموا أن الله بشّر المؤمنين بأنهم سينطلقون إلى مغانم، والمنافقون دائمًا يحبون المشاركة في المغانم لا المغارم، ودائمًا يشجع من يكسب فقط.

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعْ السَّحَرَةَ} متى؟ {إِن كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ}[الشعراء: ٤٠]، فهم لم يقولوا: "نتبع المنتصر أو الحق"، بل قالوا: "نتبع السحرة" –وفي حالة واحدة– إن كانوا هم الغالبين! فإذا السحرة غُلبوا لا نتبعهم، وإن موسى انتصر لا نتبعه.

فهو متخذ القرار قبل أن يذهب بأنه سيظل كما هو –على نفس عقيدته– والذي يجعله مستمرًا كما هو أن السحرة يغلبون، فهو يعلم ما الذي يناسب ظروفه.

فعندما علم المنافقون أن الله بشر أهل الإيمان –الذين شهدوا الحديبية– بمغانم كثيرة يحصدونها من خيبر، قالوا لهم: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} اسمحوا لنا أن نتبعكم.

ألم يكونوا منشغلين؟ هل أصبح لديهم وقت فراغ فجأة؟ بالطبع لا ، ولكن الآن يوجد مغانم، فهو ينشغل ويتفرغ على حسب الواقع، فإذا كان هناك أزمات ومشاكل، يكون منشغلًا جدًا، أما عندما تفتح الدنيا، ويكون هناك مغانم، نراه فجأة قد انتقل إلى الفريق الآخر، فنجد الفرق –في الزمن– بين "شغلتنا أموالنا"، و"ذرونا نتبعكم" بسيط جدًا، فهل انتهيت من مشاغلك في هذه الفترة البسيطة؟!

وهذه المواقف هي التي تفضح المنافقين، فقد يحدث أحيانًا تغيير مفاجئ في الواقع يفضح الإنسان، لذلك قال الله عن هؤلاء أنهم: {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا }[البقرة:20]، من معنى هذه الآية: أضاء لهم: أي فتحت الدنيا في الدين،وكان هناك تمكين للدين، ولا يوجد مشاكل، فهنا كلما أضاء لهم مشوا وادعوا نصرة الدين، وإذا أظلمت، وحدثت مشاكل وابتلاءات، واستضعاف قاموا وانشغلوا.

وهو ليس لديه مشكلة نفسية في أن يكذب ويُقسم، ثم يُغير كلامه، ويكون منفعلًا في كل مرة، فيتحدث عن نصرة الدين في أوقات التمكين، ويغير رأيه على حسب الوقت، فهو لديه قدرة نفسية مهولة على تغيير آرائه على حسب الواقع، فهم لمّا كانوا يقولون: (شغلتنا أموالنا وأهلونا)، وبعدها مباشرة

قالوا: اسمحوا لنا أن نكون معكم {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ} بسبب كلمة "مغانم"، وهي المحرك الأساسي والمفتاح في تفكير المنافقين.

فماذا نقول له؟ {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} لقد قضى الله -عز وجل- أن لا يخرج إلى خيبر إلا من شهد الحديبية، هل تريدون أن تغيروا كلام الله، نحن ننفذ كلام الله وأوامره، فالمحرك الأساسي عند المؤمنين ليس المغانم وإنما تنفيذ كلام الله، فالله عندما قال لنا اخرجوا إلى الحديبية، خرجنا، وعندما قال لنا سيكون هناك قتال، فبايعنا، ثم نهانا عن القتال، فلم نقاتل وصالحنا.

فالمحرك الأساسي لدى المؤمنين هو كلام الله، لكن المنافقين يريدون أن يبدلوا كلام الله، فقال تعالى: {قُل لَّن تَتَّبِعُونَا}، و"لن" قطعية.

{كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ}، فالله أخبر المؤمنين في الطريق أن المنافقين سيقولون لهم هذا الكلام، وعرفنا أن هذا سيحدث، والموضوع عندنا منتهي.

فيرد المنافقون على المؤمنين، ويقولون لهم: {بَلْ تَحْسُدُونَنَا} ، لأن كل تفكير المنافقين هو في المغانم فقط، ويعتقدون أن الذي أمامهم يفكر بنفس الطريقة!

فالشخصية ذات التفكير الخطأ دائما تسيء الظن في كل الناس وتفترض بأنهم يرتكبون الأخطاء، لأن هذه طريقة تفكيره هو، فهم قالوا "بل تحسدوننا"، لأنهم يظنون أن المؤمنين لا يريدونهم أن يأتوا حتى لا يشاركوهم في الغنائم، وإذا قلت له أن هذه هي أوامر الله، لا يفهم هذا الكلام، فالله يقول: {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} بل: حرف إضراب؛ أي دعك منهم.

{إِلَّا قَلِيلًا}: **الاستثناء هنا:**

*قيل معناه: أي لا يفقهون إلا فقهًا قليلًا، قال بعضهم -وهو اختيار الزمخشري-: أي أنهم لا يفهمون إلا في الدنيا، مثلما قال تعالى: {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} أي: لا يعلمون قدرة الله.

{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}[الروم:7]، فهؤلاء لا يفقهون إلا في الحياة الدنيا فقط ، فعند أخذ المغانم يبدأ يفهم ويفكر، أما الابتلاءات ونصرة الدين فهو لا يفكر فيها.

*وقال بعضهم: {بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي: أن قليلًا منهم سوف يتوب إلى الله -عز وجل-، فقليل منهم ستؤثر فيه الموعظة، ويتوب.

{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ}[الفتح:16]؛ أي إذا كنت كما تقول تريد أن تتوب فعلًا، ولا تريد المغانم، وطلبت من -النبي صلى الله عليه وسلم- أن يستغفر لك، والهدف أن تكفر عن خطيئتك الأساسية، وندمت على تخلفك عن الحديبية، وعندما كنا نستعد للذهاب إلى خيبر قلت بأنك تبت إلى الله، وتريد أن تجاهد في سبيل الله، ونحن قلنا أن هدفك المغانم، وأنت تقول أن ليس هدفك المغانم، فسنقدم لك الحل.

فهم عندما عاد النبي من صلح الحديبية، علموا أنه سيذهب إلى خيبر، وهم يعلمون أن خيبر فيها مغانم، فقالوا: لقد أذنبنا ،وكنا نريد أن نجاهد معك، لكن النبي قال لهم: أنه خارج للغزو ولن يأخذهم معه، فقالوا: أنتم تحسدوننا، ونحن نتمنى أن نجاهد في سبيل الله، وقد تبنا إلى الله،

فيقول الله للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يرد عليهم: {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}، فيرجع هنا -المنافق- ليقول: {شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا} ويختفي.

هذه نقطة مهمة في التعامل مع الله، يوجد نقطة صعبة في الطريق إلى الله، هذه نقطة مهمة في التعامل مع الله، يوجد نقطة صعبة تقابلها في الطريق إلى الله أنت ترفض أن تجتازها، فستقابلها ثانية، فالخروج للحديبية كان صعبًا، ويحتاج حسن ظن بالله وجهاد ومجاهدة، لأنهم كانوا خارجين للجهاد، لكن الذهاب إلى خيبر كان سهلًا؛ لأن الله بشرهم وسيأخذوا المغانم، والمنافقون يريدون خيبر بدل الحديبية؛ لذلك قال الله لهم: لا، ستعيد نفس الاختبار {سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ} ، وهم قد يسلمون بدون قتال، لكن لابد أن تخوضوا الامتحان الصعب، أن تخرج ليس لأجل المغانم.

دعوا خيبر فقد انتهت، إذا كنتم تريدون أن تتوبوا حقًا، فستُدعون في المستقبل، وسيظهر حينها هل أنتم صادقون أم كاذبون.

ودائمًا الذي يتخلف عن نصرة الدين، ولا يريد أن يخوض طريقًا شاقًا، سيأتي إليه مرة أخرى، هو ينتظر أن تكون الأمور سهلة، ويعتقد أنه بذلك يكون قد اجتاز الاختبار، لا، سيأتيه الاختبار مرة أخرى

وستصعب الأمور عليك مرة أخرى، فلا بد أن تخوض الاختبار وتقتحم العقبة، **ولا بد أن تأخذ القرار الصعب في الوقت الصعب؛ يقينًا في قدرة الله، فهذا ملخص الاختبار.**

لذلك يُروى عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: أن من مات مجنونًا أو في فترة من الرسل، أو لم تبلغه الرسالة، فسيكون اختباره يوم القيامة بأن يوقد له الله نارًا ويقول له: ارم نفسك فيها، وهو اختبار يقين في الأصل، فمن أغمض عينيه واقتحم فيها، تكون عليه بردًا وسلامًا [5]

فملخص ابتلاء السنوات كلها التي نعيشها هو يقين بأوامر الله، فإذا أمرك أن تفعل كذا تفعله.

إذًا؛ فالاختبار كله هو أن يأتيك أمر صعب من الله، وتنفذه يقينًا في قدرة الله وفي موعوده –سبحانه وتعالى–.

{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ} أي أن الحل للذين لم يأتوا المرة الماضية كي يخرجوا من هذه الأزمة، هو خوض الاختبار الذي سيأتي في المستقبل.

فالتوبة نحن نفهمها بشكل خاطئ، فهي ليست استغفارًا باللسان فحسب؛ لذلك فتوبة كعب ابن مالك لم تكن بأن يذهب إلى النبي ويقل له أنه نادم، لا، بل ظل خمسين ليلة يجاهد والمجتمع كله يمتنع عنه.

نحن لدينا خلط بين ترك المعصية، والتوبة الكاملة من المعصية، فمثلًا من يشرب (مخدرات) وتأثر بعد سماعه درسًا وعظيًا، أو بعد موت أحد أصحابه، فقرر أن يترك شرب المخدرات، لكن لازالت السموم في دمه، فهو في هذا الوقت يحتاج إلى أن يجاهد فترة طويلة حتى ينزع حب المعصية من قلبه.

فالمنافقون قالوا أنهم ندموا على عدم خروجهم للحديبية، ولكنهم سيخوضون نفس الأزمة مرة أخرى، لذا قال تعالى: {سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا} وجاء الأجر نكرة ليفيد: مغانم الدنيا والآخرة.

[5] [عن الأسود بن سريع:] أربعةٌ يحتجُّونَ يومَ القيامةِ: رجُلٌ أصَمُّ ورجُلٌ أحمَقُ ورجُلٌ هرِمٌ ورجُلٌ ماتَ في الفَترةِ فأمّا الأصَمُّ فيقولُ: يا ربِّ لقد جاءَ الإسلامُ وما أسمَعُ شيئًا وأمّا الأحمَقُ فيقولُ: ربِّ قد جاءَ الإسلامُ والصِّبيانُ يحذِفونَني بالبَعَرِ وأمّا الهرِمُ فيقولُ: ربِّ لقد جاءَ الإسلامُ وما أعقِلُ وأمّا الَّذي ماتَ في الفَترةِ فيقولُ: ربِّ ما أتاني لكَ رسولٌ فيأخُذُ مواثيقَهم لَيُطيعُنَّه فيُرسِلُ إليهم رسولًا أنِ ادخُلوا النّارَ قالَ: فوالَّذي نفسي بيدِه لو دخَلوها كانت عليهم بَرْدًا وسلامًا

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٣٥٧ • أخرجه في صحيحه

{وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ}؛ أي: لو رسبتم في الامتحان، كما رسبتم قبل ذلك {يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[الفتح:16].

قال بعض أهل العلم:

*إن القوم الذين هم أولي بأس شديد، هم: قوم هوازن، أو غزوة حنين.

*وقيل: فارس والروم.

*وقال كثير من المفسرين -ومنهم الإمام الواحدي والزمخشري-: أن هؤلاء هم أهل اليمامة (مسيلمة الكذاب)، وأن المقصد هنا بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لذلك قال بعضهم أن هذه الآية فيها دلالة على إمامة الصديق.

وأول من اختار هذا الاختيار من المفسرين ونافح عنه هو الإمام الزهري وقال المقصود هنا الصديق لأن المقصود بقوم أولي بأس شديد هُم اليمامة لأنها بالفعل كانت حربًا ذات بأس شديد -كانت اليمامة معركة شرسة جدًا، ومات فيها كثير من القراء، واستشهد فيها كثير من الصحابة-، فقيل أن المراد بالآية: أنهم سيتعرضون لفتنة أصعب، والنبي سيكون حينها غير موجود، وستكون المواجهة أصعب، وأنت مطالب بأن تجاهد في سبيل الله، فأحيانًا عندما تؤخر الامتحان يأتي بشكل أصعب!

{سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا}

أي تطيعوا الداعي لكم، سواء كان النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو الصديق.

{يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}

وهنا قال الإمام ابن عطية في التفسير المحرر: لما بالغ الله -عز وجل- في الحث على القتال، فأحيانًا عندما تتحدث كثيرًا عن البذل، يظن بعض الناس أنه ليس هناك عذر، وهذا توازن القرآن، فأتى بعد ذلك العذر، كيف أن القرآن تحدث بحماسة وقوة عن نصرة الدين، لكن في نفس الوقت ذكر بأن هناك أناسًا لديهم أعذار، فأتى الخطاب متوازنًا.

ودائمًا قد يرد في القرآن خطاب يحث على القتال كما قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا}، بمعنى أنه يجب ألا تختلف، ولا بد أن تقول عن المنافق أنه منافق،

ثم يقول الله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا}[النساء:94]؛ بمعنى: ليس معنى أنك تقول عن المنافق منافق أنك تقول عن أي أحد أنه منافق، فيحدث التوازن في الخطاب. وسورة النساء مليئة بهذا التوازن.

فكما يوجد في القرآن خطاب حماسي، يوجد أيضًا خطاب يحثنا على التماس الأعذار: {لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}.

والخلاصة هي: أن يبذل كل منا ما يستطيع {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا}[الفتح:17]

ففي هذه الآية ذكر الله -عز وجل- ثواب الدنيا، حيث منّ سبحانه على من شهد الحديبية بالمغانم ، وحُرم منها من لم يخرج، ثم تحدث عن أعلى شيء رجع به أهل الحديبة، وهو بيعة الرضوان.

نسأل الله عز وجل أن نكون من أهل بيعة الرضوان، وأن يفقهنا في الدين، وأن يعلمنا التأويل، وأن يستعملنا لنصرة دينه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.